وصف الطبيعة في شعر الصنوبري

لا يحضرني الآن المكان الذي وقعتُ فيه على ذكر شهرة الصنوبري بِرَوْضِيّاته كَشُهْرَةِ أبي نواس في خمريّاته وابن المعتزّ في تشبيهاته . على أيّ حال ، فقد كانت الجماعة تُشير إليه ، كما يبدو ، من خلال قصائده في الرياض ، أو قُلْ وصفه للطبيعة ومفاتنها عامةً . ولا يكتفي أبناء عصره بأن يقرنوه بالطبيعة في شعره ، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فَيُلَقِّبُونه بلقبٍ مستمدٍّ من الطبيعة . بيد أن هذا لا يُضيره من قريب أو بعيد ، بل إنه يَنْبَري يدافع عن هـذه النسبة الجديدة إلى الطبيعة ويصوّر اعتزازه بها ويظهر إعجابه فيها فيقول :

وإذ عُزينا إلى الصنوبر لم نُعْزَ إلى حاملٍ من الخَشَبِ
لا بَلْ إلى باسقِ الفروع عُلاً مناسباً في أرومة الحسبِ
فالحمد لله إن ذا لقبٌ يزيدُ في حسنه على النسبِ !

ولِمَ لا يطلق عليه اسمٌ يوحي بالطبيعة البكر وهو صاحب دعوة شعرية لها حين يقول :

وصف الرياض كفاني أن أُلِمَّ على وصف الطلول ، فهل في ذاك من بأسِ

ولا يبدو الأمرُ غريباً أن يدعو شاعر إلى العزوف عن هذا الضربِ من الوصف إلى ما هو بمثابة النقيض له ، إلى وصف الرياض . لقد أنْصَبَ أبو نواس هذا المعين داعياً إلى ترك وصف الطلال والوقوف عليها وبكاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدِمن وما شاكل ، بيد أنه لم يُصَرِّح التصريح كلّه ولم يَدعُ مباشرةً إلى العناية بالطبيعة . وإنما قال بشرب الخمر المعتقة ووصفها ، وقد أغرق وأفحش . بل إنه لم يزد على ما أعلم أكثر من السخرية حين قال :

قُلْ لمن يبكي على رسم درسْ واقفاً ، ما ضرّ لو كان جَلَس

وأحسب أن ذلك كان كذلك ، لأن دعوته إلى التجديد انبثقت من شعوبية دفينة ! لكنّا نرى عند شاعرنا الصنوبري دعوة إلى الأخذ بوصف الرياض ومحاسنها .

وتتحوّل هذه الدعوة بعد ذلك إلى عاطفة جيّاشة غيورة على الطبيعة . يقف الصنوبري موقفاً يصف الطبيعة وما فيها ، فيبذل من قلبه ومن عصبه فلذةً شعرية حتى يستخفّهُ الطربُ ، فإذا به غَيران على تلك الرياض غَيُور على هذه المرابع ، فلا يتمالك نفسه من أن يتوعّد ولو بحسرةٍ كلّ معتدٍ أثيم يحاول أن يَجْرُؤَ على هذه الجنائن ، وإذا به يخرج إلى عاطفة صادقة مشبوبة فيقول :

لو كنت أملك للرياض صيانةً يوماً ، لَمَا وطىء اللئام ترابها

* * *

فما شأن شعر شاعر كهذا ؛ يُعرف بروضيّاته ، ويلقّب باسم من الطبيعة ، ويدعو لها ، ويقفُ يذبُّ عنها ؟

* * *

يلاحظ الناظر في شعر الطبيعة الذي نظمه الصنوبري والذي نُمْنَى به في هذا البحث أن له قصائد ينسجُ فيها على هذا المنوال :

أرأيت أحسن من عيون النرجسِ أم من تلاحظهنّ وسط المجلسِ ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

... مغرورقاتٌ من ترقرق طَلِّها ترنو بعين الناظر المتفرّس
وحكى تداني بعضها من بعضها يوماً ، تداني مؤنسٍ من مؤنسِ
وإذا نَعِسْتَ من المدام رأيتها ترنو إليك بأعين لم تَنْعَسِ

وأيضاً حين يتكلّم على نهر حلب ، قُوَيق :

وقد عابَهُ قوم وكلّهمُ له على ما تعاطوه من العيبِ عُشّاقُ
يَهاب قويقٌ أن يُمَلّ فإنما يقيمُ زماناً ثم يمضي فنشتاقُ

وحين يقول في الربيع :

قد تجلّى الربيع في حُلَلِ الزهرِ وصاغ الحَمَامُ حلي الأغاني
زُيّنت أوجه الرياضِ فأضـــحت وهي تُزْهى على وجوه الحسانِ
ألبستها يَدُ الربيع من الألـــوان بُرداً كالأتحميّ اليماني[1]

فلو تأمّلنا هذه المقاطع من حيث الصور المتحرّكة لوجدنا مثلاً : صورة أعين النرجس وهي تتلاحظ ، أو صورة أعينها مغرورقة بالدمع من الندى ، أو صورة تداني بعضها من بعض ، ولوجدنا كذلك هذا النهر الذي يُكثر الهجر كَيْلا يُمَلّ ، ولوجدنا الرياض وُجُوهاً تحاسن الفانيات ، أو ألفينا يَدَ الربيع تُلبس هاتيك الرياض البرود اليمانية الملوّنة . وظاهر للعيان أن شاعرنا في هذا يُضْفي على الجمادات أو الأشياء غـــير العاقلة صفاتٍ إنسانيةً ، وهذا الضربُ من التصوير يعرف لدى الأكثرية بالتصوير الوجداني . وهو شائع في شعر صاحبنا شيوعاً كثيراً . فلو تصفحتَ مجموعة شعر الصنوبري التي في ذيل البحث لَمَا رقيَ الشك إليكَ في أنّ الشاعر يتوكأ

(١) التُّحمة شدة السواد والأُتْحم : الأدهم ، والأتحميّ : ضرب من البرود .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على الوجدانية في الشعر توكّؤاً كبيراً . قد يعود ذلك في المقـــام الأوّل إلى استعداد نفسيّ عند الشاعر ، وقد يعود ثانياً إلى نوع من المشاركة الفعلية بينه وبين مظاهر الطبيعة حتى يُتاح له هذا التعاطف المنسجم . إذ أن المصادر تخبرنا بأنه كان شديد الشغف بالرياض يرتادها ويؤمّها ويقضي فيها الليالي متنزّهاً قاصفاً لاهيا .

ويلاحظ الناظر ثانية أن للصنوبريّ أشعاراً يذهبُ فيها هذا المذهب :

وحظّي من نُقْلٍ إذا ما نَعَتُّــهُ   نعتُّ لعمري منه أحسن منعوتِ
من الفستق الشاميّ كلّ مصونةٍ   تُصَانُ عن الاحداق في بطن تابوتِ
زبرجدة ملفوفةٌ في حريرةٍ   مُضَمَّنَةٌ درّاً مغشّىً بياقوتِ

وهذا النحو :

ونرجسٍ مُضْعَفٍ تضاعف منه الحســـــنُ في أبيضٍ وفي أصْفَرْ
الدرُّ والتبرُ فيه قد خُلِطا   للعين والمسكُ فيه والعَنْبَرْ

وعلى هذا النحو أيضاً وهو في وصفِ هرٍّ :

قُنْفُذٌ في ازبراره وهو ذئبٌ   في اغترارٍ(١) وحيّة في انسيابِ
ناصبٌ طرفه إزاء الزوايا   وإزاء السقوف والأبوابِ
يَنْتَضِي الظُّفْرَ حين يظفر في الحر   بِ ، وإلا فظفره في قِرابِ
يسحبَ الصيدَ في أقلّ من اللمـــح ولو كان صيده في السحابِ

(١) في الروضيات للطباخ ص ٦٦ : في افتراس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلو أمعنّا النظر في هــذه الأمثلة السالفة وحاولنا استخراج الصور المتحرّكة منها كما فعلنا سابقاً ، لرأينا في صورة الفستق صورةً جامدةً ، ولرأينا في صورة النرجس سكوناً لا حركة فيه ، ولَلَمحنا في وصف الهرّ صوراً وتشابيه بأشياء أخرى من مرتبته ، لم ترفعه ولم تُضْفِ عليه صفةً وجدانية ، فبقيَ حيواناً . وهذا النوع من الوصف موضوعيّ . فالشاعر لا يُعْنَى فيه بشيء سوى التصوير الدقيق ، كأدقّ ما يمكن . بيد أنّه قليل الورود عند شاعرنا على استقلال ، ولولا اجتزاء الرواة وأصحاب كتب الشعر القدامى أبياتاً معدودات من قصائد طويلة ضاع أكثرها ، لأمكننا أن نقول بأن الصنوبري لم يضرب بسهمٍ كبير في هذا الموضوع وإنما جاء ضمن الاطار الوجداني كَلَمْحَةٍ انفلاتية خاطفة من عجلة الوجدان الدائرة .

تنقسم أوصاف الصنوبري الموضوعية ثلاثة أقسام . أوّلها الوصف البنائي وهو وصفٌ يبني به الشاعر الموصوف بناءً . فيبدأ بأجزاء الموصوف يركّبها تركيباً ويؤلّف ما بين هذه التراكيب . ففي مقطوعته في وصف الفستق الآنفة الذكر ، يراه يبدأ باللب ثم بما يحيطه ثم بما يحيط المحيط حتى يجتمع لديه بعد هذا التركيب فستقة شامية . وهذا النوع من الوصف على طرافته ورقّته وصفٌ جدّي . فالشاعر يُعيد خلق ما يصوّره . كأنما يبدع هذا الشيء مجدّداً تاركاً ما يكره منه مضيفاً إليه ما يرغب فيه محسّناً مجمّلاً . من أوصاف البناء أو التركيب وصفه للباقلاّء :

فصوص زمرّدٍ في غُلْفِ درٍّ بأقمــاع حكت تقليم ظُفْرِ
وقد خاط الربيــع لهــا ثياباً لها وجهان من خُضْرٍ وصُفْرِ (١)

(١) وفي رواية : بديع اللون من خضر وصفر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتوفيق الشاعر في هـــذا الوصف متوقّفٌ على الموصوف وتركيبه الطبيعيّ ، فهو إمّا متناسقٌ متراكم وإمّا منبسط متوازن . والشاعر يأخذ من كليهما بما يريد، فيصف التفاحة مثلاً منبسطة متوازنة كما يصف النرجسة .ويصف الشقيقة ساعة منبسطة وساعة متراكمة . فمن وصف الشقيق المتراكم التركيب :

جُمَمٌ سُرِّحت بلا مُشُطٍ أو طُرَرٌ قُصِّصَت بلا مقراضِ
حمرةٌ فوق خُضْرَةٍ وسوادٌ بين هـــذين معلمٌ ببياضِ

فلو وضعنا إزاءه وصف النيلوفر :

كدنابيس[1] عسجدٍ نصفها من زبرجدِ

لاتضح لنا معنى المنبسط المتراكم إذ أن الثاني منه .

ونستطيع أن نجعل ثاني أقســـام الوصف الموضوعي عند الصنوبريّ الوصف التحليلي : أي تحليل الموصوف بدل تركيبه . وهذا الوصف له زعيم — هو ابن الرومي — لا بُدَّ وأن الصنوبري قـد تأثّر به . فمن أوصاف الصنوبريّ التحليلية وصف النرجس ، وما أكثر ما وصفه :

درٌ تشقّق عن يواقيتٍ على قُضُبِ الزبرجدِ فوق بُسْطِ السندسِ
أجفان ياقوتٍ خفقن بأعينٍ من زعفران ناعمات المَلْمَسِ
وكأنها أقمار ليلٍ أحدقت بشموس أُفقٍ فوق غصنٍ أملسِ

كذلك وصفه للسوسن وهو وصف تحليليّ كما يُلاحظ :

كأنّه ملاعقٌ من فضّـــة[2] قد خُطّ فيها نقط العنبر[3]

---

(١) في الروضيات للطباخ ص ٢٢ : كدنانير . (المجلة)
(٢) وفي رواية : من ذهبٍ .
(٣) نرى أن يكون الشطر الثاني هكذا : قد خط فيها نقطٌ من عنبر . ليستقيم البيت بشطريه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كذلك وصف الأقحوان الأصفر (البهار) والشقيق وغيرهما مما يجده القارئ في ذيل هذا البحث .

وأما القسم الثالث من وصف الصنوبري الموضوعي فهو الوصف العام الذي يباشره من أيّ جهة أو صوبٍ تاركاً التحليل والتركيب آخذاً الموصوف كما يراه من الخارج ، كأن يصف روضةً مثلاً فيذكر غدرانها ومياهها وزهرها وشجرها ، دون أن يبين أيها يحيط بالآخر أو أيها فوق الثاني أو تحته . وأوصاف الصنوبري في هذا الباب كثيرة ، وأكثر ما ترِدُ خلال وصفه الوجداني المشار إليه آنفاً . وكأني به عندما لا يقدر أن يحيط بالموصوف وجدانياً ينفلت إلى مثل هذا النوع وهو وفي هذا الوصف إمّا أن يشبّه الموصوف بشيء آخر ، أو يصف حركته وهيئته ، أو يصفه في حالٍ من أحواله .

* * *

ولا يتبادرنّ إلى الأذهان أن هذه التقاسيم مستقلةٌ قائمة بذاتها وأن الحدود بينها فاصلة قاطعة كأنها حدود رياضيّة ؛ كلاّ بل إن هنالك خاصيّة التمازج والتداخل . وقلّما تجد هذا الفصل القاطع وحيداً في غير المقاطع الصغيرة والتي أشرنا إلى اجتزاء الرواة والمؤلفين لها من قصائد طويلة ضاعت . ومن الخطل أن يزعم أحدٌ غير هذا لأن هذه التقسيمات إنّما هي نظرية بحت ، مستمدّة من الشعر الذي بين أيدينا ، فمنها ما نجد له الشاهد أو الشاهدين ، فلم نستبعده وإنما أبقيناه لمنطقية السياق ، ولمحاولة الإلمام بكلّ جوانب الموضوع . وأنا لعلى يقين أن ديوانه يحوي العديد من الشواهد .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من قبيل ترتيب شعر الصنوبري في أبواب موضوعية نتوقّف على ستّة حقول موضوعية رئيسيّة . فسيساعدنا هذا على تحليل بعض النماذج من شعره والتكلّم على بعض مزاياه .

* * *

أوّل هذه الحقول ، شعره في الرياض الطبيعيّة والصناعية . فعندما يتكلّم الصنوبري على الرياض الطبيعية يكون شبح الربيع بادياً بجلاء . فكأن الربيع فنّان همّه الأول تزيين الأرض وإنبات النبتِ والزهر وإحياء أغراس الطبيعة . والربيع ليس كباقي فصول السنة ، فاختلافه عنها شديد وبيّن . هذه فكرة الصنوبري عن الربيع . تبرز هذه النزعة جليّة واضحة في مطلع قصيدة رائعة ، يعرض في الأبيات الثلاثة الأولى شأن الجوّ والأرض في فصول السنة الثلاثة ما عدا الربيع . وأما الفصل الأخير ، فبنظر الشاعر ، هو الحياة بأجمعها ، بل هو « الدهر » :

إن كان في الصيف ريحان وفاكهة ... فالأرض مستوقد والجوّ تنّورُ
وإنْ يكُنْ في الخريف النخل مختزفاً ... فالأرض محسوره والجوّ مأسورُ
وإنْ يكن في الشتاء الغيث متّصلاً ... فالأرض عريانة والجوّ مقرورُ
ما الدهرُ إلّا الربيع المستنير ، إذا ... جاء الربيع أتاك النَوْرُ والنُّورُ
فالأرض ياقوتةٌ والجوّ لؤلؤةٌ ... والنبتُ فيروزج والماء بَلّورُ

لو تفحّصنا الأبيات الثلاثة الأولى ورأينا وجه التشابه والتركيب فيها ورأينا ما يريد الشاعر أن يشير إليه ، وهو شرط وجود شيء مستحسنٍ في كل فصل يَنْسَخُه عن الروعة والكمال شيئان وهما حال الأرض وحال الجوّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

آنئذٍ ، اتّضح لنا أنّ الربيع عند الصنوبري فصلُ الروعة والكمال . حتّى إن العطاء الشعري لدى الشاعر حين تكلّم على الربيع ازدان بالبديع المجوّد ، وارتفعت المعاني الشعرية فجأة ؛ فاذا الربيع إنسان يأتي ويروح وتأتي في ركابه الأفراح والبهجة متمثّلةً بالنور والزهر ، وتروح في إثره مخلّفةً الحرّ والقرّ . ويُلاحظ أيضاً الترتيب الطبيعيّ لسياق الفصول : إذ يبدأ بالصيف فالخريف فالشتاء ، ثم الربيع . وقبل أن ينتقل إلى وصف الربيع يُجْمِلُ ذلك كلّه في البيت الأخير مستعيراً الألوان من ألوان الجواهر .

وليست مظاهر الربيع تأتي معه من تلقاء نفسها عند شاعرنا ، بل الربيع نفسه هو الذي يُعْمِل يده في إخراج هذه المباهج والمفاتن :

يا ريم قُومي الآن ويحك فانظري ما للرّبى قد أظهرت إعجابها
كانت محاسن وجهها مستورة فالآن قد كشف الربيع حجابها

وتتجلّى هذه الدعوة على أشدّها في هذا البيت :

إنّ آذار لم يذر تحت بطن الأر ض شيئاً أكنّه كانون

وعلى توفّق الشاعر في الجناس هنا ، نرى صورة مستطرفة رائقة : كأنّ الشتاء (متمثّلاً بشهر كانون) والربيع (متمثّلاً بشهر آذار) جاهدان على تعطيل الواحد عمل الآخر : وشتّان ما بين عمل الشتاء والربيع .

أما البساتين التي جالت بها يدُ الإنسان لتزيد في حسنها ، فلا يختلف وصف الصنوبري لها عن وصفه للمرابع الأخرى ؛ غير أننا نرى ازدياد عدد الأشياء المذكورة وتعدّد المسمّيات . ويرافق هذا الوصف عادةً ثلاثة معان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تتردّد دائماً . فالمعنى الأول فكرة الحب والحنين إلى هذه المآلف والشوق إليها ووجود هذا يستتبع وجود الثانية وهي فكرة وصل الرياض ، والمعنى هنا أمُّ الرياض . أما المعنى الثالث ففكرة تعاطي الخمر والقصف . والأبيات التالية المقتطفة من قصيدة طويلة تمثّل ما ذهبنا إليه أصدق تمثيل :

أما الرياض فقد بدت ألوانها صاغت فنونَ حُليِّها ألوانُها
رقّت معانيها ورقّ نسيمها وبدت محاسنها وطاب زمانها
واهاً (لِرافقةِ) الجنوب محلّةً حفّت بها أنهارها وجنانُها
وكأنّ أيام الصِّبا ايامُها وكأنّ أزمان الهوى أزمانُها
حُثّ الكؤوس فإن هذا وقتُها وصِلِ الرياضَ فإنّ ذا إبّانها

* * *

والحقل الرئيسيّ الثاني الذي سنقف عنده هو وصف الأزهار والرياحين . وقد ضرب الصنوبري بسهمٍ كبير في هذا الباب . ولم تعدم كلّ قصيدة تقريباً في موضوع الطبيعة عامةً وصفاً أو ذكراً لزهر « أو ريحان » . على أنّ هنالك أنواعاً من الزهر أولاها عنـاية خاصةً : منها النرجس . والمعاني التي وردت عنده في ذكر النرجس تتردّد ما بين الوجدانية والموضوعية . وقد أجاد الصنوبري في كلا النوعين . والمعاني الشائعة عنده تشبيهها بالعيون وما يدخل في هذا الباب مِنْ تَلاحُظٍ ورنوٍّ ونظرٍ ، ومن جفنٍ وحدقةٍ ودمعٍ وما إلى ذلك . بيد أنّ ألطف ما توصّل إليه في هذا المعنى :

وردٌ بدا يحكي الخدود ونرجسٌ يحكي العيون إذا رأت أحبابها !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقد مزج ما بين التشبيه والتَّصَرُّف . فالنرجسة كالعين حال رؤية الحبيب ، حين تلتمع بالبهجة وتطرق خجلاً واستحياءً . وهذا البيت إذا أمعنّا النظر فيه نرى أن الجملة الظرفية الأخيرة ، « إذا رأت أحبابها » يمكن أن تنطبق على العيون والخدود ، أي النرجس والورد ، وما يرافقها من إطراق وتورّد ، ولا أزيد قائلاً : إنه بيت رائع .

ومن وصفه النرجس بيتان رائعان أيضاً غاية في التشبيه . ولا بأس في إيرادها بالحرف :

كأنما النرجس في روضه إذا ثنته الريح عن قُرْبِ
أقداح ياقوتٍ تعاطيكها أنامِلٌ من لؤلؤ رَطْبِ

فهذه الكأس الصفراء ، وربما كانت هنالك ياقوت صفر ، تخيّل الشاعر أنامل مطبقةً عليها ، بيضاء من غير سوء ، فيها رقّة اللؤلؤ وصفاؤه ؛ ومن لا يستطيع أن يرى نرجسةً أمام ناظريهْ بعد قراءة هذين البيتين ، لا يستطيع أن يرى شيئاً .

وتكتمل هذه الصورة الرائعة لشاعرنا في حبّه للنرجس حين يفضله على الورد ، سلطان الأزهار ، ويقيم مساجلةً بينهما ينتصر فيها الوردُ بحجّة دامغة على النرجس استقاها من حسن الأخير . وما ذنب هذا الزهر البديع أن يلام إذا كانت عيونه مريضة ، أو ليست العيون التي في طرفها مرضٌ تقتلُ ذا اللب حتى لا حراك به ؟ وتتفاقم الحال وتتأزّم ؛ وإذا الروض ينقلب إلى « ديوان سلطانيّ » وإذا بالنرجس يتغلّب على الورد مرّةً ثانية في الحسن حتى يخجله :

خجل الورد حين لاحظه النر جس من حسنه وغار البهار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لاحظ ههنا إيحاآت الأفعال (خجل وغار) باللون . فالخجل يولّد الاحمرار وهو لون الورد . والغيرة تولّد الصفرة وهي لون البَهار ، أي الاقحوان الأصفر .

وهل خجل الورد وحده من النرجس ؟ كلاّ ، لقد انقلب الروض بزهره إلى شعب يجلّ أميره ويودّ لو يفتك بهذا النرجس . وتتوافق الأزهار كلّها وتستجيش على محاربة النرجسِ الغضّ وتأتي دارعةً سائفةً بجحفلٍ جرّار يثير الغبار . بيد أن الشاعر يتدخّل ليحل الأزمة إشفاقاً على الزهرة المستضعفة المطّهدة ... وينجح في سعيه ، ويعود السعد يكسو الروض ثانيةً .

مع أن هذه المعارك والمفاضلات بين الزهر قد طُرِقت من قبل ، وكان أوّل من عمل في ذلك ابن الروميّ ، فإنّ الذي يدفع الصنوبري صعداً في هذا الحقل ويشفع له ، إحسانه التعبير وتوفيقه في النظم . وهذا الضربُ من النظم منتهى التشخيص وغايته . ولا أظنّ أن الوجدانية تتعدّى ذلك . فالتشخيص ههنا تعدى مرحلة إضفاء صفات إنسانية على الزهرة ، بل غدا هذا ثانوياً . انقلب الأمر إلى سلطان ورعيّة يأمرها فتطيعه ، وإلى مساجلات ومعارك وإشفاق ووساطات تؤدي إلى الصلح .

من المستحسن ههنا أن نُرجع إلى القصيدتين في هذه النزعة حيث توجدان في ذيل هذا البحث ، اقتصاداً للمقالة هذه ، إذ أن اجتزاء أبيات قليلة منها هنا للتمثيل يُعدّ جناية في حقها .

ومن الأزهار التي كثر قول الصنوبري فيها الشقيق . وإذا كانت قصيدته النرجس التي مطلعها « أرأيت أحسن من عيون النرجسِ » تُعَدُّ القصيدة الأم في وصف النرجس وما سواها يتفرّع عنها في المعاني والصور ، فإنّ قصيدته في الشقيق التي مطلعها « وجوه شقائق تبدو وتخفى » تُعَدُّ القصيدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأم في هذا الموضوع وسواها تفرّع عن معانيها. وتتجلّى النزعة الإنسانية الوجدانية فيها على أشدّها حين يقول :

إذا طلعت أرتك السرجَ تذكى وإن غربت أرتك السرج تطفا

ومن بليغ تشابيهه في الشقيق بيتان قصيرا البحر سريعا الوزن، ينقلان الفكرة إلى القارىء بعنف وسرعة :

وكأنّ محمرّ الشقيـــــق إذا تصوّب أو تصعّدْ

أعلام ياقوتٍ نشر ن على رماحٍ من زبرجَدْ

وللسريّ الرفّاء، معاصر الصنوبري، بيتان في وصف الشقيق بهما نفس السرعة في الأداء على أن المعنى يشبه معنى الصنوبري في وصف النرجس بالقدح كما مرّ معنا :

وشقيق جـــاده الغيـــــث رواحاً وابتكارا

مثلما أترع ساقي الرا ح أقداحاً صغارا

وكلا المعنيين بليغ التشبيه.

والورد لا يقف عند حدّه مرّة ثانية بل يظهر غيرته من الشقيق أيضاً ويشق عليه أن يكتسي بالحمرة المحبّبة كحمرة الخدود أكثر منه :

شقيقة شقّ على الورد ما قد أخذت من كثرة الصبغِ

كأنّما في حسنها وجَنَةٌ يلوح فيها طرف الصدغِ

هذا مع أن الشقيق قد لطم خدّه انتصاراً للورد في المعركة السالفة الذكر :

عندها أبرز الشقيق خدوداً صار فيها من لطمه آثارُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على أنّ المكانة الأولى تبوّأها النرجس مستأثراً بشغف الشاعر نائلاً منه اهتماماً أزيد، والتفاتاً أكثر. ويتفرّع اهتمام الشاعر في الأزهار الباقية. إمّا ذكراً وحسب، وإمّا وصفاً موجزاً مقتضباً.

ويدخل في هذا الباب أيضاً وصف الخضار والفواكه. بيد أن الصنوبري لم يضرب بسهمٍ كبير في هذا الموضوع حسب النماذج التي عثرنا عليها. كما أنه لم يُعنَ بوصف الأشجار عنايته بوصف الأزهار. ولعلّ ذلك عائد إلى طبيعة النوعين لما في الزهر من شؤون تثير الحواس، فتبعث على الاهتمام أكثر من سواها. ففي الزهر اللون والرائحة والدقة واللطف ولكنّ أطرف معنىً ورد عنده في وصف الشجر جاء في قصيدته التي مطلعها «يا ريمُ قومي الآن ويحكِ فانظري» وهي قصيدة من عيون شعره. قال فيها يصف السرو:

والسرو تحسبه العيون غوانياً ... قد شمّرت عن سوقِها أثوابَها
وكأنّ إحداهنّ من نفح الصّبا ... خودٌ تلاعبُ موهِناً أترابَها

* * *

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى ظاهرة بارزة تستوقف النظر. فقد رأينا في وصف الصنوبري للزهرِ ضروباً كثيرة من التشبيه وذكر الألوان وما إلى ذلك، بيد أننا لم نقع على ذكرٍ لرائحة الزهر بحيث نجعلها من موضوعات شعره، وهذا غريب عجيب منه، لم يصرّح ولم يلتفت إلى الروائح التفاته وتصريحه بالألوان والأشكال الزهرية والشجرية والخضرية. فهل هنالك سبب مباشر أو غير مباشر لهذه الظاهرة؟

* * *

وما دمنا في حديث الأزهار والأشجار، ننتقل إلى الحقل الثالث، إلى شيء يتّصل بالأشجار اتصالاً وثيقاً، ألا وهو الطير. ولقلّة ورود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأطيار نسبيّاً أحببنا أن ندرج معه كذلك ذكر الحيوان على اختلاف نوعه وجنسه . فيدخل في هذا المقام قصيدته في وصف المرّ ، وقصيدته الأخرى في وصف الديك والتي هي من فرائد شعره .

نلاحظ من المواقف التي ورد بهـــا ذكر الطير أن ما يفتنه منه هو تغريده . وهذا التغريد يضفي على الرياض روعة وجمالاً في عُرْفِ شاعرنا ويأتي ليزيد في حسنها . وإذا ما أشرقت الرياض بزهر الخيريّ والنسرين وحفّ بالبستان مُسْتَكْمَل اللون وأصفاه :

صاح فيه الهزار ، ناح به القمري ، غنّى في جوّه الشِفنين[1]

وأمّا أنتَ أيها الآمُّ الرياضَ فَـ :

حيث التفتّ فقمريّ وفاختةٌ يغنّيـــان وشِفنين وزرزورُ

إذا الهزارانِ فيه صوّتا فَهُما بِحُسنِ صوتهما عودٌ وطنبورُ

وهل الكمال بآلات الطرب وحدها ، أفلا يريدُ السعيد غناءً وما فائدة العود والطنبور مغرّدين ؛ لذلك :

غنّى عليها (الخازباز)[2] تطرّباً فِعْلَ القيان تجاوبت ألحانُها

فأيّ روعة تفوق هذا[3] وأيّ جنّةٍ تفوق هذا :

ما أتى الناسَ مثلُ ذا العامِ عامٌ لا ولا جاء مثلُ ذا الحين حينُ

ويَفْتُنُ شاعرنا لون الطير كذلك ، وما أشدّ افتتان صاحبنا بالألوان . فالورشان طائر إذا غنّى جعل نزهتك في الرياض نزهتين : أسمعك ما تشاء

---

(١) الشِفنين : نوع من الحمام أو هو : اليمام وجمعه : شفانين .

(٢) الخازباز [بكسر الجزءين] وهو الذباب البرّي يكون في الأرض أو يطير على الشجر ، قال المتنبي : ومن الناس من يجوز عليه شعراءُ كأنها الخازباز (المجلة)

(٣) قال ابن الرومي :

فكانت أرانين الذباب هناكم على لهوات الطير ضرباً موقعا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما لا تشاء ، أضف إلى ذلك ارتداءه رداءً من السوسن ، و :

قد تغشّى لونَ السماءِ قَراهُ[1] وتراءى من جيـــده الفرقدانِ

ولا نزال نقع للصنوبري هنا وهناك على ذكر لطير أو حيوان . على أن أروع ما جادت به قريحته هو وصف الديك ، ومن الأفضل الرجوع إلى القصيدة كاملةً في الذيل .

أوّل ما يبدهنا به الشاعر في القصيدة ذلك الحِسُّ الوجداني الخالص الذي يجعل من الديك منادياً للفجر كأنه بندائه يُبْزِغُه :

مغرّد الليل لا يألوك تغريدا ملّ الكرى فهو يدعو الصبح مجهودا

أرأيتَ أرقّ من هـــذه الـ « ملّ الكرى » ! ثم أرأيت أرقّ من ديك يضجر من النوم فيجهد ينادي الصبح . انّه لمغرّد يثيرك إشفاقاً على نفسه . كفى هجوعاً ، يقول الديك لنفسه أين الصبح ، يزيد متأفّفاً ويَبْزَغُ الفجر فيطرب الديك ، ويهزّ أعطافه ويمدّ جيده كي يطيل مدّ صوته ... وتتكنّفه البهجة بالصبح حتى يبدو :

كلابسٍ مِطْرفاً مُرْخٍ ذوائبه تضاحك البيضُ من أطرافه السودا

وهو ديك كأنه من ملوك الديكة ، له قلادة حمراء يقصّر الورد عنها حمرةً ، وعيناه ترى ما ليس يحدّ ، وله تاجٌ كأنه تاج كسرى ، وكأنّ ظُفْرَيْه اللّذين في عقب رجليه ، بعد ذكر التيجان والملوك ، أوحيا لشاعرنا معنىً يرافق ذلك ، فقال :

أو فارسٍ شدّ مهازيه حين رأى لواء قائده في الحرب معقودا

* * *

(يتبع) فوّاز أحمد طوقان

(١) القرا : الظهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net